وأصدق الناس لَهْجة[1] ، وأوفى الناس ذمّة . وألينَهم عريكة[2] ، وأكرمهم عشرة . من رآهُ بديهةً[3] هابَه . ومن خالطَه أحبَه .

يقول ناعِتُه : لم أر قبله ولا بعده مثلَه . ﷺ .

صفة رسول الله ﷺ
من الإنجيل

قال ابن إسحاق :

وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى بنُ مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبتَ يُحَنَّس الحواريُّ لهم . حين نسخ لهم الإنجيل عَن عهد عيسى بن مريم عليه السلام في رسول الله ﷺ إليهم . أنه قال :

« من أبغَضَني فقد أبغض الربّ . ولولا أنّي صنعتُ بحضرتهم صنائعَ لم يَصنعها أحدٌ قبلي ما كانت لهم خطيئة . ولكن من الآية بَطِروا وظنّوا أنّهم يَعِزُّونني[4] وأيضاً للربّ . ولكن لا بدَّ من أن تتمَّ الكلمةُ التي في الناموس . إنّهم أبغضوني مجّاناً ـ أي باطلاً ـ فلو قد جاء المُنْحَمَنَّا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب . روح القدس هذا الذي من عند الرب خرج . فهو شهيدٌ عليَّ وأنتم أيضاً . لأنكم قديماً كنتم معي . في هذا قلت لكم لكيما لا تشكّوا[5] » .

و« المُنْحَمَنَّا » . بالسريانية : محمد . وهو بالرومية « البَرَقْليطسْ » .

البعث

فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافّة

---

(١) اللهجة : الكلام

(٢) لين العريكة : حسن العشرة .

(٣) بديهة : ابتداء .

(٤) عزه يعزه : غلبه .

(٥) انظر إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٣ ـ ٢٦ .

للناس بشيراً . وكان الله تبارك وتعالى قد أخذَ الميثاقَ على كلِّ نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه ، وأخَذَ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى كلّ مَن آمن بهم وصدَّقهم ، فأدَّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه .

عن عائشة رضي الله عنها :

إنّ أوّلُ ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوّة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح . وحبب الله تعالى إليه الخَلوة ، فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من أن يخلوَ وحده .

وعن عبد الملك بن عبيد الله :

أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوّة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت[1] ، ويفضيَ إلى شِعاب[2] مكّة وبطونِ أوديتها ، فلا يمرُّ رسول الله ﷺ بحجرٍ ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يَرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله ﷺ كذلك يَرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث . ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء[3] ، في شهر رمضان .

عن عبيد بن عمير :

كانَ رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تَحَنَّثُ به قريشٌ في الجاهلية[4] . فكان يجاور ذلك الشهرَ من كل سنة ، يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره

---

(١) أي تبعد عنه .

(٢) الشعب : ما انفرج بين الجبلين .

(٣) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال .

(٤) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام .

ذلك كان أولُ ما يبدأ به إذا انصرفَ من جواره الكعبةَ ، قبل أن يدخل بيتَه ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته . حتى اذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلةُ التي أكرَمَه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : فجاءني جبريل وأنا نائم بنَمَط من دِيباج[1] فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت ما أقرأ[2] . قال : فغتَّني به[3] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : ﴿ اقرأْ باسم ربِّك الذي خلَق . خلَق الإنسانَ مِن عَلَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ . الذي علَّمَ بالقلم . علَّم الإنسانَ ما لم يَعلمْ﴾ . قال : فقرأتُها ثم انتهى فانصرفَ عنّي ، وهببت من نومي فكأنّما كتِبت في قلبي كتاباً .

فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسولُ الله وأنا جبريل ! فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صافّ قدمَيه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ! فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخّر ، وجعلت أُصرِف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلّا رأيته كذلك . فما زلتُ واقفاً ما أتقدّمُ أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثَتْ خديجةُ رسُلَها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكّة ورجعوا إليها وأنا واقفٌ في مكاني ذلك . ثم انصرف عنّي .

---

(١) النمط : ضرب من البسط . والديباج : ثيابٌ من الابر يسم .

(٢) ويروى : « ما أنا بقارئ » .

(٣) غته : عصره عصراً شديداً .

وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي حتى أتيتُ خديجة ، فجلست إلى فخذها مُضيفاً إليها[1] فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا مكّة ورجعوا إليَّ !

ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشِر يابن عمّ واثبتْ ، فوَ الذي نفسُ خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة !

ثم قامت فجمعت عليها ثيابَها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمِّها . وكان ورقة تنصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرتهْ بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدّوس قدّوس ، والذي نفس ورقةَ بيده ، لئن كنتِ صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر[2] الذي كان يأتي موسى[3] ، وإنه لنبيُّ هذه الأمة ، فقولي له فليثبُتْ .

فرجعت خديجةُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة . فلمّا قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة ،

فقال : يا ابن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبيُّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموسُ الأكبر الذي جاء موسى ، ولتُكذَّبَنَّه ، ولتُؤذَيَنّه ، ولتُخرَجنّه ، ولتُقاتلنه[4] ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ! ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه[5] . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله .

---

(١) مضيفا إليها : ملتصقا بها مائلا إليها

(٢) أراد به الملك الذي جاءه بالوحي . وأصل الناموس صاحب سر الرجل

(٣) السهيلي : « إنما ذكر ورقة موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب ، لأن ورقة كان قد تنصر ، والنصارى لا يقولون في عيسى : إنه نبي يأتيه جبريل ، إنما يقولون فيه : إن أقنوما من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية حل ناسوت المسيح واتحد به ، على اختلاف بينهم في ذلك الحلول » .

(٤) الهاء في كل هذه الأفعال هي هاء السكت .

(٥) يافوخه : أم رأسه .

ابتداء تنزيل القرآن

فابتديء رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان . يقولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ شهر رمضانَ الذي أُنزِل فيه القرآنُ هدًى للنّاس وبيِّناتٍ من الهُدى والفرقان﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلناهُ في ليلة القدر * وما أَدراكَ ما لَيلةُ القَدْر * ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شهر * تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ ربِّهم من كلِّ أمرٍ * سلامٌ هي حتى مَطلع الفَجْر﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ حم * والكتابِ المبين * إنّا أنزلْناه في ليلةٍ مُباركة إنّا كُنّا مُنذرِين * فِيها يُفْرقُ كُلُّ أمرٍ حكيم * أمراً مِن عندنا إنّا كُنّا مُرْسِلين﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن كُنْتم آمنتم باللهِ وما أَنْزَلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرقان يومَ التَقَى الجَمْعَانِ﴾ . وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر .

إسلام خديجة بنت خويلد

وآمنت به خديجة بنت خُويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أوّلَ من آمَنَ بالله وبرسوله ، وصدَّق بما جاء منه ، فخفّف الله بذلك عن نبيّه ﷺ ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه مِن ردٍّ عليه وتكذيب له ، فيحزُنَه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبّته وتخفّف عليه ، وتصدِّقه ، وتهوِّن عليه أمر الناس ، رحمها الله !

قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أُبشِّر خديجة ببيتٍ من قَصَب[1] لا صخَب فيه ولا نَصَب » .

فترة الوحي

ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترةً من ذلك ، حتّى شقّ ذلك عليه

---

(١) القصب : اللؤلؤ المنحوت